الــرهـان

للكاتب الروسي: أنطون تشيكوف «١٨٦٠ـ١٩٠٤»

كانت ليلةَ خريفٍ ليلاءْ. شرع المصرفي العجوز يذرع غرفة مكتبه جيئةً وذهاباً مستعيداً في خياله رجع ذكرى لحفلة أقامها ذات ليلة خريفية منذ خمس عشرة سنة مضت وتولت. يومها كان المكان يعجُّ بجمع غفير من العلماء والباحثين والمثقفين ودار الحديث الماتع ـ فيما دار آنذك حول عقوبة الإعدام فانقسم المدعوون بين معارض ومؤيد وتمنى نفر منهم إبدالها بعقوبة السجن المؤبد:

ـ لا أستطيع أن أوافقكم الرأي في ذلك ـ قال المضيف لم يحكم علي من قبل ـ ولله الحمد ـ على أني لو خيرت بينهما لاخترت عقوبة الإعدام فهي أجدى وأرحم. إن الإعدام يستلّ روحك فوراً، أما السجن المؤبد فيمتص منك رحيق الحياة شيئاً فشيئاً.

ـ كلتاهما تخدمان الغرض ذاته! إلحاقك بأصحاب القبور.

قال أحدهم.

ومن بين المدعوين كان محام شاب لما يتجاوز أسوار الخامسة والعشرين بعد... طلب منه أن يدلي بدلوه فقال:

كلتا العقوبتين في القسوة سواء على أني لو خُيِّرت بينهما لاخترت السجن المؤبد دون تردد... أعتقد أن التعلق بأهداب الحياة هو خير من ظلام اللحود.

ودار ـ على إثر ذلك ـ جدل عميق فقد المصرفي ـ الذي كان آنذاك أنضر شباباً وأكثر تحمساً وميلا إلى الغضب ـ أعصابه على إثره فضرب المنضدة بقبضته بشدة و التفت إلى المحامي الشاب مغضباً قبل أن يصيح به:

ـ هراء و كذب أراهنك ـ بمليوني «روبل» أنك لن تستطيع البقاء في زنزانة حتى ولو لخمس سنوات!

ـ إن كنت تعني ما تقول حقاً فأراهن أن باستطاعتي البقاء لا لخمس سنوات وإنما لخمس عشرة سنة.

ـ خمسة عشر عاماً! قبلت أشهدكم على ذلك يا سادة مليونان عداً و نقداً و أيم الله.

ـ اتفقنا إذاً تراهن بمالك و أراهن بدوري بحريتي!

قال المحامي مبادلاً إياه تحدياً بتحدٍ. وهكذا أبرم ذاك الرهان السخيف... الطائش.. المسعور!

وطرب ليلتها ذلك المصرفي فقد كانت دماؤه تمور بطيش الشباب و هوس التحدي فيما كانت ملايينه لا تعدُّ و لا تحصى

وقال في تهكم:

ـ عد إلى صوابك وثب إلى رشدك قبل فوات الأوان أيها الشاب! إن فقدان مليوني «روبل» سوف لن يضيرني شيئاً أما أنت فستهدر من عمرك ثلاثة أعوام أو أربعة هي أجمل سني حياتك... وأقول ثلاثة أو أربعة لأني على يقين من أنك لن تصمد أكثر من ذلك.... ثم.... ثم تذكر أن السجن التطوعي هو أشد من الإلزامي و أنكى.... أيها الشقي التعيس... إن التفكير في كونك قادراً على مغادرة السجن أنى شئت سيظل هاجساً يطاردك ليل نهار ليسمم حياتك فلا يقر لك تباعاً أي قرار.

تذكر المصرفي العجوز كل ذلك وهو يذرع الغرفة جيئة و ذهاباً فسأل في مرارة نفسه:

ـ أي فائدة تجني من إبرام ذلك الرهان يا ترى؟ يفقد المحامي من عمره خمسة عشر عاماً فيما ينقص من مالي مليونان هل سيقتنع الناس جراء ذلك بجدوى الإعدام؟ وبأنه خير أو شر من عقوبة السجن المؤبد.... كلا... محض هراء ذلك الأمر برمته.... كان ذلك غروراً و كبرياء مني وعشقاً للأصفر الرنان من طرف المحامي!

وطفق المصرفي يجتر الذكريات... مستعيداً ما حدث بعد انتهاء تلك الحفلة المشؤومة فقد تقرر سجن المحامي في حديقة أحد أجنحة قصر المصرفي وفي ظل حراسة مشددة تحت سمع المصرفي ذاته وبصره، كما نص الاتفاق على أن يمنع السجين إبّان ذلك من تجاوز أعتاب المنزل أو رؤية الناس ناهيك عن سماع أصواتهم، كما حرَّم عليه تلقي الصحف والرسائل، وأما ماُ رخّص له به فحيازة أية آلة موسيقية وكذا كتابة الرسائل وتأليف الكتب وأخيراً وليس آخراً فقد أُجيزتْ له المشروبات والتبغ بأنواعه! وأتاحت له تلك الاتفاقية الاتصال الصامت بالعالم الخارجي عبر نافذة صغيرة صُمِّمت خصيصاً لذلك وكان بإمكانه الحصول على كل ما يطلبه ـ ضمن دائرة المسموحات ـ متى أراد وذلك بإرفاق طلب خطي صغير بذلك عبر النافذة.

كانت الاتفاقية المبرمة قد راعت كل صغيرة وكبيرة حتى صيرت من سجنه حبساً انفرادياً بحتاً لمدة خمس عشرة سنه يبدأ من الساعة الثانية عشر ليوم الرابع من شهر نوفمبر عام سبعين وثمانمائة وألف «١٨٧٠» وينتهي الساعة الثانية عشرة من شهر نوفمبر لعام خمسة وثمانين وثمانمائة وألف «١٨٨٥». ونصت الاتفاقية على أن أية محاولة لمخالفة ذلك حتى وإن تمثلت في هروب السجين قبل الموعد المضروب بدقيقتين... ستجعل المصرفي في حلٍّ من دفع المبلغ المتفق عليه.

خلال سنته الأولى في السجن عانى المحامي كثيراً من مآسي الوحدة والملل، بدا ذلك جليّاً عبر ما كان يدونه من مذكرات. وكان صوت البيانو ينساب في هدوء من جناحه ليل نهار. ورفض استقبال التبغ والشراب إذ إن الأخير كما كتب يثير الرغبات... عدو السجين الأكبر. أما التبغ فقد كان دخانه يلوث أجواء

الغرفة. واستمر وصول الكتب ذات الطابع الخفيف إليه... روايات غرامية وقصص حربية وأخرى كوميدية. في السنة ذات الثانية توقف البيانو فلم يعد يُسمع واكتفى السجين بقراءة روائع الأدب العالمي أما في السنة الخامسة فتسلَّل صوت البيانو إلى الأسماع مجدداً وطلبَ السجين بعض المشروبات وقال عنه من راقبه عن كثب بأنه قد أمضى معظم ذلك العام في تناول الطعام والشراب وفي الاسترخاء على أريكته... وما أكثر ما تثاءب وتحدث بغضب إلى نفسه وكان يستيقظ في بعض الأحيان ليلاً فيكتب ويكتب ثم هو يستيقظ في الصباح فيمزّق ما دوّن... وكان يُسمعُ في بعض الأوقات... منتحباً! في النصف الآخر من السنة السادسة، عكف السجين على دراسة اللغات والفلسفة والتاريخ بحماس إلى حدٍّ استعصى معه على المصرفي تزويده بما يطلبه من كتب حول ذلك... وفي بحر أربع سنوات تم ـ بناءً على طلبه ـ شراء ما يقرب من ستمائة مجلد له وفي خضم ذلك الشغف بعث بخطاب إلى المصرفي جاء فيه:

سجاني العزيز:

تصلك أسطري هذه بلغات ست. وإني لآمل أن تعرضها على ذوي الاختصاص من الخبراء فإن أجمعوا على خلوها من أي خطأ. فإني آمل أن تأمر بإطلاق رصاصة أستدل بها على صحة توجهي و بأن جهودي لم تذهب أدراج الرياح. لقد تحدث عباقرة الكون بألسنة شتى لكن اللهب ذاته كان يتأجج في ذواتهم طرّاً. ليتك سيدي تدرك أي سعادة جمة تحتويني بعد أن صار بإمكاني معرفة ما يقولون وفهم ما يكتبون!

وكان للسجين ما أراد. رددت جنبات الحديقة صدى مدوياً لعيارين ناريين أطلقا إنفاذا لتوجيهات المصرفي!

بعد السنة العاشرة عكف السجين على قراءة الكتب الدينية وتاريخ الأديان أما في العامين الأخيرين له في السجن فقد انكب على قراءة كمٍّ هائل من الكتب في شتى فنون المعرفة... شد ما شغف بالعلوم الطبيعية يبحر في خضمها الساحر ثم يعرج على روائع «بايرون» و«شكسبير» وكثيراً ما بعث بطلب خطي

لتزويده بكتب الكيمياء والطب والفلسفة وكان أمره في القراءة عجيباً إذ إن الكتب بالنسبة له شادت قطع الخشب المتناثرة على صفحة اليمّ يهرع إليها الغريق في لهفة من يأمل في النجاة من ذلك البحر اللجي، فيجمعها قطعة قطعة واللهاث يمزق رئتيه.

استعاد المصرفي كل تلك الجزيئات في ذاكرته وفكر:

ـ غداً في الساعة الثانية عشرة سيغادر سجنه وسيكون لزاماً علي أن أفي بعهدي فأدفع له المليونين عندها سأهوي إلى قرار الإفلاس!

وغشت سحابة من الهم والكدر محياه إذ تذكر أنه كان يعد ملايينه فيما مضى من سنيّ عمره أما في حاضره ذاك فقد كان يتساءل بحسرة عما إذا كان عد ديونه قد فاق حساب رصيده!

أضاع القمار والتهور وقاعات البورصة ما جمعه مستدرجاً إياه إلى الخراب والدمار ليحوله بذلك من ثري فخور واثق الخطوة، غير هياب ولا وجل إلى مصرفي عادي يرتعد فرقا لدى كل انخفاض في السوق أو ارتفاع.

ـ «ذلك الرهان المشؤوم»!..... تمتم العجوز ممسكاً برأسه في يأس وألم! ـ لماذا لم يمت ذلك الرجل؟ ما جاوز الأربعين.... لقد بلغ أشده و سيضع يده على كل ما أملك فيتزوج ويضارب بمالي في ردهات البورصة أما أنا فسأظل أرنو إليه في حسد ولهفة متسول مسكين ولسوف تطرق مسمعي ذات الكلمات كل يوم: «أنا مدين لك بما اجتمع لي من ثروة وسعادة دعني أنفحك شيئا!» كلا هذا لا يطاق! ـ قال المصرفي في كمد ـ لن ينقذني من ظلمة الفقر والعار إلا موت السجين!

كان الجميع نياماً عندما دقت الساعة معلنة الثالثة.... وأصاخ المصرفي السمع فما تسلل إلى أذنيه سوى ذلك النحيب المؤلم لأشجار الخريف وقد جمدها الصقيع فهي تئن كلما داعب النسيم مكامن الشجن في أوتارها، عندها هبَّ واقفاً ثم تسلل إلى خزينته فأخرج منها مفتاح السجن الذي ما مسته يد منذ خمسة عشر عاماً ثم ارتدى معطفه وخرج.

كانت الحديقة باردة مظلمة والمطر ينهمر بشدة فيما هبت موجة أقضّت مضاجع الأشجار مجدداً..... وفرك المصرفي عينيه فما تبين في خضم الحلكة شيئاً و لما حاذى جناح السجين هتف باسم الحارس مرتين و لما لم يجب أدرك أنه قد وجد في المطبخ أو الحديقة المغطاة ملجأ من الماء المنهمر.

ـ لو واتتني القدرة على تنفيذ مخططي لاتجهت أصابع الاتهام إلى الحارس دون شك.

وتلمس المصرفي العجوز طريقه في خضم بحر الظلمات حتى ارتقى درجات العتبة المفضية إلى جناح السجين ثم وصل إلى ممر ضيق فأشعل عود ثقاب وألقى على غرفة الحارس نظرة فإذا هي خالية إلا من سرير و موقد... أما الأخَتام الموضوعة على مدخل باب السجين فكانت كما هي منذ وضعت. وعندما خبا وَهجُ عود الثقاب هز الانفعال جسد المصرفي وهو يسترق النظر عبر نافذة السجين الصغيرة .

في غرفة المحامي كانت ثمة شمعة واهنة تحترق ببطء وكان هو جالساً وظهره إلى مسترق النظر. ما بدا منه سوى شعر رأسه ويديه، وعلى المنضدة والكراسي والسجادة انتشرت كتب مقلوبة كثيرة خمس دقائق مرت دون أن يبدي السجين حراكاً! علمته سنوات السجن الطويلة أن يجلس كالتمثال دون حراك. وطرق المصرفي النافذة بإصبعه فلم يحرك السجين ساكناً، عندها فضَّ الأول أختام الباب قبل أن يدير المفتاح في القفل وأحدث القفل الصدئ صرصرة مزعجة ثم سمع صرير الباب وهو يفتح!.. و توقع المصرفي أن يهب السجين من مكانه لفرط المفاجأة... فيصرخ في ذهول لكن دقائق ثلاث مرت دون أن يطرأ على السكون الموغل في تجاويف الغرفة أي تغيير فعقد العزم على الدخول.

أمام المنضدة جلس رجل غريب الهيئة فكأنما ودع منذ أزل عالم البشر كان هيكلاً عظمياً رق جلده حتى شفّ عما تحته أو كاد و كان له شعر طويل أجعد كشعر النساء ولحية مغبرة شعثاء. أما لون وجهه فحاكى صفار التربة فيما غار

خداه. وتأمل ظهره فهاله ما بدا عليه من طول ونحول وتلك اليد التي أسند عليها رأساً مشعراً.. لكم كانت تبعث على البكاء! كان مجرد النظر إليها يحرك في الذات أقسى مشاعر الشفقة والألم.. ووخط الشيب هامته: تسللت خيوط الكفن البيضاء حتى كللت معظمه حتى لم يعد يصدق من يراه أن ذلك الشبح الواهن لما يزل في بحر الأربعين. وتحت اليد المثنية على المنضدة كانت هناك ورقة دُوِّن بها شيء ما.

ـ يا للشرير التعس! إنه الآن يحلّق مع أطياف الكرى حالماً بما سيصنعه فور تلقيه المبلغ المتفق عليه.... ليس لي الآن سوى حمل هذا الجسد شبه الميت لألقي به فوق سريره قبل أن أطبق عليه بيدي ولن تظهر أدق التحقيقات أي أثر لوفاة غير طبيعية ولكن دعني قبل هذا أقرأ ما كتبه هنا!

ورفع الورقة فقرأ التالي:

«غداً.. وفي منتصف الليل تحديداً سأسترد حريتي فأستعيد بذلك نعمة الاختلاط بالناس على أني أرى لزاماً علي ـ قبل أن أغادر غرفتي هذه فأبصر ضياء الشمس ـ أن أخبرك بشيء».

أعلن وأنا بكامل قواي العقلية وبضمير واع مرتاح ـ تحت رقابة من لا تنام عينه جل وعلا ـ بأنني أمقت الحياة والحرية والصحة وكل ما تنعته كتبك قاطبة... بنعيم الوجود!

لقد دأبت ولخمس عشرة سنة خلت على دراسة حياة الإنسان على هذه الأرض.. صحيح أني ما رأيت أرضاً ولا بشراً..

لكني.. في كتبك أبحرت إلى عوالم من خيال.. أثملني فيها رحيق الزهور وشدو الطيور... ردَّدتْ روحي أعذب الأنغام وتوغَّلت في مجاهل الغابات فاصطدت الظباء والغزلان البرية ورأيت النساء نساء فاتنات كسحب الأثير أبدعتها قرائح عباقرة الشعراء... فتيات كن إذا أويت إلى فراشي يزرنني فيسكبن في مسمعي أروع الحكايا فأنتشي لوقعها و يثمل فؤادي للحظات عفيفات.

عبر كتبك ـ سيدي ـ امتطيت قمم الجبال الشاهقة لـ«البروز» و«مونت بلانك» و اكتحلت عيناي في ذراها بمرأى الشمس يتفتق عنها صدر الأرض هناك في آخر العالم فتسكب إبان غروبها صبابة الذهب تطلي بها السماء والمحيط ورؤوس الجبال سمعت هناك في الأعالي دوي الرعد و رأيت ومض البرق يقدّ فؤاد الغيوم كسيف عنترة بن شداد، رأيت غابات خضر وبيادر وحقولاً وجداول وأنهاراً ومدناً... ومست يداي أطراف أجنحة النوارس المبحرة في خضم السماء. في كتبك ـ سيدي ـ سبرت غور بحار لجِّيَّة... صنعت المعجزات أحرقت مدناً عن بكرة أبيها و حررت أقطاراً !.

لقد منحتني كتبك الحكمة كل الحكمة.... إن عبقرية الإنسان وحصاد فكره الفذّ قد اختزل الآن في جمجمتي. وأنا على يقين الآن بأني أفوقكم طرًّا علماً وثقافة وذكاء وحكمة.

على أني الآن أحتقر كل كتبك.أمقت النعيم الدنيوي وحكمة الإنسان فقد أدركت أن كل شيء ما خلا الله زائل باطل.... وأن كل مابنا من نِعَم وما لدينا من متع ما هو إلا سراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً... أيقنت ـ سيدي ـ بأنك مهما كنت جميلاً غنياً حكيماً فإن يد الموت لاشك ستمتد إليك لتمحوك عن وجه البسيطة فتتساوى بذلك مع الجرذان النافقة تحت الأرض... عندها لن ينفعك مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

تعساً لكم يا بني آدم... تحسبون الزيف حقيقة وتخالون القبح جمالاً و... تستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير.

كم أحتقر ما تمجّدون وخير دليل على ذلك هو أني سأتنازل طائعاً مختاراً عن مبلغ الرهان المتفق عليه... ذاك الذي طالما حلمت بأنه المفتاح إلى عوالم السعادة والنعيم... ذاك الذي أمقته الآن فهو لا يساوي في نظري شيئاً... أجل سأحرم نفسي من حق الحصول عليه إذ إني سأغادر هذا المكان قبيل الموعد المضروب بخمس دقائق فأكون بذلك قد خالفت بنود الاتفاقية ويصبح المصرفي في حلٍّ ساعتها من دفع المبلغ المتفق عليه لي.

عندما أنهى المصرفي قراءة ذلك وضع الورقة بهدوء على المنضدة ثم، انحنى فقبَّل في حنان رأس الرجل الغريب وانخرط في بكاء عميق قبل أن يغادر الجناح.

مـــا أحس في أي وقت مـــضى بازدراء ذاتي كـــذلك الذي أحس به آنذاك مطلقاً... حتى يوم مُنِيَ بخسارة فادحة في سوق البورصة... وما أن دخل بيته حتى استلقى على سريره لكن العذاب والدموع والألم لم يسلمه للنوم إلا بعد مضي وقت طويل.

في صبيحة اليوم التالي جاءه الحارس المسكين يعدو وأخبره بأنهم قد بصروا السجين يتسلل من النافذة إلى الحديقة التي لفظته بعد أن عبر بوابتها.

وهرع المصرفي من فوره مع حارسه إلى غرفة السجين فكتب تقريراً بذلك ولتلافي ما قد ينتشر من إشاعات أخذ ورقة التنازل الخطي للسجين من على المنضدة وإبان عودته أقفل عليها باب خزانته.